

تان تان يهز العالم جيلا بعد جيل

هيرجيه.. الأساطير تعاش على هذا النحو



أحبته العامة واختلفت عليه النخبة



كان هيرجيه ابنا للفترة التي عاش فيها وامتدت على طول القرن الماضي الذي جعلته أوروبا قرنا استعماريًا بامتياز

مسرحة لمغامرات تان تان ورفاقه. حكم عليها بعض المتشددين بالعنصرية والانحياز للفكرة الاستعمارية كما هو الشأن في إحدى مغامرات بطل السلسلة في المغرب أثناء الاستعمار الفرنسي، أو فلسطين قبل الاستيطان اليهودي، لكن هيرجيه، ليس مطلوبًا منه أن يكون مناضلاً قومياً يعمل لفائدة المصالح العربية.. إنه كاتب وفنان أوروبي لا أكثر ولا أقل.

الحقيقة أن البومات هيرجيه، بحسب الباحث الفرنسي بلان في محاضراته سابقة الذكر، تمثل جهل الأوروبيين عموماً للعرب، وغرهم من غير الأوروبيين، مضيفاً أن الفنان البلجيكي "جعلنا نتعاطف طوال الوقت مع شخصياته غير الأوروبية والتي لم يصورها، خلافاً للمنطق الأوروبي السائد وقتها، باعتبارها مجموعة من الرعايا غير المتحضرين". صفة القول أن "مغامرات تان تان" عمل فني خالد، لذلك أحبته العامة، واختلفت عليه النخبة.. ومن يفتح اليوم البوما لهيرجيه، فسوف ينسج كل المماحكات، ويتفرج عليه بمتعة وانسداد.

يكفي في طفولتنا أن تكون للواحد غزرة نافرة في مقدمة فروة رأسه حتى يلقبه اقرباه بـ"تان تان". ليست الأساطير تعاش على هذا النحو؟ هذا الفتى اللججكي النشيط، وهو ينتقل من بلد لآخر من أجل تغطية الأحداث وكشف الألغاز والطلاسم، ليس غريباً عن مراسلي الحرب ومغربي ساحات القتال في أيامنا لا بل صار واقعا معاشاً، كان هيرجيه قد استبقه بتسعين عاماً، وزاد إليه حساً إنسانياً ووعياً بيئياً لم ينطقن إليه أبناء جيله. الأطرف من كل ذلك أن عوالم تان تان قد انفتحت على ثقافة الكثير من النسخ التي تناولتها، وكانت مطواعة في تعديل بعض الأسماء والترجمات مثل الإنجليزية والعربية التي اكتسبتها لهجة المصرية في مجلة "سمير" نكهة خاصة، قد تحول تان تان في هذه المجلة الصادرة عن دار الهلال إلى "تم تم" وأصبح اسماً المخبر التوام (تومسون وتومسون) "تيك وتاك".

وبينما كان "هادوك" الغاضب يلعن، في الطبعة الإنجليزية، بكلمات مستمدة من طبيعة البحر والأنواء، فإنه اعتاد بالطبعة المصرية أن يلعن على وتيرة مكررة هي "الف ألف مليون لعنة".. وبدلاً من أن يخاطب خصمه الأسمر قائلاً "أيها البربري المتوحش" فإنه أصبح يناديه بالطبعة المصرية بقوله "يا زتونة مدهونة".

كاتب وفنان

هذه الليونة في الترجمة والإعداد لم تكن تفسد لود قضية، لكنها اصطدمت في الوقت ذاته بقرابات سياسية وأيديولوجية، أفستد نكهة السلسلة المصورة، وجعلتها في محل نزاع ومنصة محاكمة لا يستسيغها عشاق تان تان، ولا يتمنونها بالتاكيد. وفي محاضرة المستعرب الفرنسي لوي بلان، منذ سنوات قليلة في القاهرة، بين أن مبدع شخصية تان تان لم يكن يقدم رسوماً مصورة يمكن سُمها بالاستعمارية، معتبراً أن الأصح هو القول إنه كان ابناً للفترة التي عاش فيها، وامتدت على طول القرن الماضي الذي جعلته أوروبا قرناً استعماريًا بامتياز.

وفي رأي الكثير من النقاد فإن هذا الكلام قد يكون قريباً من الصواب في مسألة تحميل سلسلة مصورة، أكثر مما يمكن أن تتحملة من تاويلات، فلماذا مثلاً، لا يستخدم الغرب نوعاً من المظلومية المعاكسة في تقويمه لبعض الأعمال في التراث الشرقي، ويحكم عليها بأنها معادية للشعوب الأوروبية؟ أجزاء من العالم العربي كانت

عاماً من إطلالته الأولى، بين حربيين عالميتين غيرتا وجه العالم، لكنهما لم تغيرا ملكة الإدهاش والاندهاش في المخيال البشري الذي بقي تواقاً إلى كل ما هو خير، حتى وإن دس أصحابه السم في الدسم.

تقف خلف هذه المغامرات الأسرة مغامرة إبداعية لفنان جعلته بلجيكا من أبطالها القوميين وكرمه بمتحف يحمل اسمه

يجب أن نعتز بأن تفوق العقل الأوروبي قد كلفه الكثير من الاتهامات، المشروعة منها وغير المشروعة، لكن علينا أن نقر بأن واحداً مثل هيرجيه، قد جعلنا نلحم، حتى وإن صحونا على كوابيس.

"مغامرات تان تان" شددت الباب أمام عن مراعيتها جميع الفئات العمرية، وعلى مختلف مشاربها، وأنا شخصياً، قصدت متحف تان تان عند أول زيارتي لبلجيكا، قبل أن أسأل عن مراعيتها الليلية، ذلك أنني كنت أود زيارة طفولتي، وتذكر جميع أصدقائي المهووسين بـ"تان تان"، من بينهم ذلك الطبيب الجراح الذي يصطحب مجلات تان تان إلى جانبه غرفة العمليات، ويعد قراءتها بينما يحضر رفيقه للعملية.. هل رايتم أكثر شغفاً من هذا؟

"التانتانينون" في العالم، أسرة واحدة، ومارالوا، إلى الآن يتبادلون المنشورات والنسخ النادرة من بطهم المفضل عبر وسائل التواصل الاجتماعي.. إنه الشغف الذي جعلني أطلق على أول كتب الهندي راجيف "ميلو".. وكلمة لمحت بحاراً مخموراً وثرثاراً، دعوته "هادوك".

يشمل نادي "التانتانينون" في العالم، ومنذ ما يناهز القرن، شخصيات فرقته لكن جمعها "تان تان" وشخصياته بمغامراتها التي تجعل العالم يختصر في اليوم مصور.. ومن بين هؤلاء المشاهير، نذكر الزعيم الهندي راجيف غاندي، الروائية الفرنسية فرنسواز ساسان، الدالي لاما، الذي كرم هيرجيه شعبه بمغامرة في التبت، لكن السلطات الصينية عدلت فيها باستخدام كلمة "التبت الصينية" أما الرئيس الفرنسي شارل ديغول فقد قال يوماً "منافسي الوحيد في هذا العالم هو تان تان". ثلاثية "مغامرات تان تان" جمعت بين ستيفن سبيلبرغ مخرج صاحب "أسنان البحر"، وبيتر جاكسون صاحب "ملك الخواتم" في لقاء فني يستمد جزوره من شغف مشترك اسمه تان تان.. ألا يكفي هذا للقول إن هيرجيه قد صنع أسطورة متجددة، وورثها لمن جاء بعده جيلاً بعد جيل.

تان - الرفيق الكامل"، ويتتبع دراسات الرسام للمواقع والأزياء والأدوات والوسائل والطبائع التي تضمنتها مغامراته، فأرانا الأصول التي استلهم منها رسم الأشخاص والأشياء كالغواصات والسفن والطائرات والمركبات الحربية والمعابد القديمة والتماثيل ووسائل ريادة الفضاء في عصره.

أما أكثر ما يجعل "مغامرات تان تان" وثيقة علمية شديدة الدقة والإدهاش، فهو رحلة الصعود إلى القمر، ذلك أنه سبق رائد الفضاء الأميركي أرميسترونغ، بسنوات، قبل أن تحط أقدامه على القمر بل وقيل إن الأخير كان مولعاً في مراقبته بما كتبه "الرائد هيرجيه".

كان صاحب هذه المغامرات الشيقة مطلعاً على عباقرة قصص الخيال العلمي، من أمثال الإنجليزي ه.ج. ويلز، والفرنسي جول فيرن، لكنه ذهب أبعد من ذلك، فقد ثبت أن استشار صديقه عالم الفضاء الدكتور بيرنارد هويلمان، صاحب كتاب "الإنسان بين النجوم" كما عكف على استشارة عالم فضاء آخر هو البروفيسور

الكسندر أنانوف. أما على صعيد توثيق الجغرافيا والطبيعة والبشرية والتاريخية لمغامراته، فقد أدهشنا هيرجيه، في اطلاع الواسع بعادات الشعوب وتقاليدها، من البلدان الإسكندنافية شمالاً إلى القبائل الأفريقية جنوباً كما مغامرته في الكونغو (وهو المستعمر)، وصولاً إلى "معبد الشمس في مصر" و"أرض الذهب الأسود" في الجزيرة العربية، حيث نجده يلم بأدق تفاصيل الحياة وعاداتها لدى أوائل مؤسسي المملكة السعودية وغيرهم من الأقاليم المجاورة.

السؤال الأكثر مكرراً واستحقاقاً في سلسلة مغامرات تان تان، هو ليس فضيلة التحقق من ثقافات تلك الشعوب التي زارها تان تان مع طاقمه "الأوروبي جداً" بل كيف صور وحكم على شخص تلك الشعوب باختيارها وإشراكها على حد السواء؟

أين موقع عنصر أسود أو أحمر أو أصفر من "مخلص أوروبي أبيض"؟ كيف هي الحكمة الروائية وما درجة الذكاء وحسن التدبير بالمقارنة مع "العبقرية الأوروبية" لدى هيرجيه، المفتون بتفوق قارته العجوز، حكمتها وقدرتها على مناصرة القضايا العادلة؟

قد تبدو محاكمة "تان تان" ظالمة بعض الشيء، ونحن على بعد تسعين

لم تحظ سلسلة رسوم مصورة في أوروبا والعالم بمثل ما حظيت به "مغامرات تان تان" من إثارة للجدال سببها شهرة ومجد وخلود بلغ حد الأسطورة. ثرى ما سرّ تعلق أجيال متعاقبة بما كان يخوضه فتى أوروبي أشقر، مع كلبه ومرافقيه، من مغامرات في شتى أصقاع الأرض؛ وكيف لسلسلة رسومات تنطلق من قلب أوروبا الاستعمارية آنذاك (بلجيكا 1929)، أن تكون أسيرة إلى هذا الحد، ويدين عليها أبناء ثقافات مختلفة دون أن تحوي نوايا مييبة؟

الكلب "ميلو" رفيق تان تان الدائم، المخلص الوثاب والوفى الذي غالباً ما يضحى بعظامه لفائدة صاحبه.

البومات "تان تان" امتدت، وبحسب التسلسل الزمني، من مغامراته في بلاد السوفييت عام 1929 إلى "تان تان والبيكاروس" في منتصف السبعينات ثم غادر هيرجيه الحياة عام 1983 إثر مرض عضال، دون أن يكمل عمله الرابع والعشرين، والذي حمل عنوان "فن بمنطق المركز والأطراف"، وتستند تلك المسودة أن يؤسس لأبدية من نوع خاص، توثق لملحة الإنسان من خلال بطل "بلجيكي جداً" أراد أن يكون "إنسانياً جداً".

الرفيق الكامل

تقف خلف هذه المغامرات الأسرة التي تحبس الأنفاس، مغامرة إبداعية لفنان استثنائي، جعلته بلجيكا من أبطالها القوميين، وكرمه بمتحف يحمل اسمه بالقرب من العاصمة بروكسل، وكذلك فعل الاتحاد الأوروبي حين أصدر في يناير 2004 عملة فئة 10 يورو مطبوعة عليها صورة تان تان وكنبه الوفي المعروف "ميلو". ويكون بذلك هيرجيه قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه.

هيرجيه (1907 - 1983) مبتدع هذا العالم الساحر في شخصية "تان تان"، لا يمكن إلا أن يكون روائياً من الطراز الرفيع، ذلك أنه لم يكن رساماً منفذاً لما كتبه غيره. إنه أشبه بولئك الذين ينتمون إلى موجة سينما المؤلف، والتي نظر إليها الكسندر استروك بقوله "السينما قلم".. كذلك كانت الريشة في يد هيرجيه، قلما يفوض في التفاصيل ويختار أدق الوضعيات وأكثرها إثارة وإدهاشاً.

هذه أبرز ملامح وميزات المدرسة الفنية البلجيكية التي تعتمد الواقعية عبر أسلوب الخط الواضح في الغرافيك، وتبيان ردات الفعل البشرية، والتي تختلف عن المدرسة الأميركية المتحمزة بأبطالها الخارقين، غير المهتمين لاي تفصيل داخلي.

كان هيرجيه روائياً بريشة رسام، كما أنه كان شديد الدقة والحساسية لكل تفصيل، سواء تعلق ذلك بالأزياء أو الوجود أو الشوارع والأمكنة. الأمر الذي دفع كاتباً متخصصاً في "التانتانينون" مثل مايكل فار، يعرض في كتابه "تان

تبدو محاكمة "تان تان" ظالمة بعض الشيء ونحن على بعد تسعين عاماً من إطلالته الأولى بين حربيين غيرتا وجه العالم

هيرجيه، مبتدع الشخصية، لم ينس أن يضيف بعداً إنسانياً لشخصيته كي تتوسع جغرافياً داخل القارة العجوز وتشمل آخرين مثل الكابتن الإنجليزي "هادوك" بمزاجه السيء، عشقه للخمور وجملته الشهيرة "الف لعنة ولعنة". هذا بالإضافة إلى المفتش التوام "دوبون" وما يمتلكه من سذاجة قاتلة، العالم الفيزيائي السويسري تورنيسول الذي يقوده ضعف سمعه إلى مواقف غريبة، والمغنية الإيطالية بيانكا كاستافور، والتي أفتت للحضور النسائي في السلسلة، وكي لا ينهم العمل بالكورية أو المسار البلجيكي الفرقتوني، ذي اللون الأحادي المشهد الأوروبي

أكملت تقريبا، في هذه السلسلة من الرسومات الموهلة في التفاصيل، وكان لزوماً على هيرجيه أن يضيف إليها العصر الحيواني، فكان

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

بعيدا عن التسلح بنظرية المؤامرة ومنهج التشكيك، فإن "تان تان" تسمح بأكثر من قراءة تفتح على حقول معرفية شتى، وتنشي بطريقة تفكير متمحورة حول عقل أوروبي، يرى ما يريد أن يراه، ضمن عقلية استشرافية تنظر إلى العالم بمنطق "المركز والأطراف"، وتستند الغرائبية (الايكوتيزم) بنظرة أقرب إلى السباحية.. كيف لا، والبطل يعمل مراسلا صحافياً، ويجوب المناطق الساخنة في العالم رفقة ثقافة أوروبية تتمثل وتتنوع بين التعلق بكلب لطيف ووفى (ميلو)، قبطان يعشق الخمور الجيدة (الكابتن هادوك)، وباحث دائم الشroud (البروفيسور برجل)؟

من صنع الآخر؟

"تان تان" صحافي شاب، شديد الحساس، عاشق للمغامرة وكثير التجوال في سبيل كشف الحقائق، حل الألغاز المبهمة، ومناصرة القضايا العادلة (حسب وجهة نظر مبتدع الشخصية طبعاً).

شارل ديغول
منافسي الوحيد في هذا العالم هو تان تان

ألكسندر استروك
الريشة في يد هيرجيه قلم يفوض في التفاصيل

هو بلجيكي حتر النخاع، من حيث الهيئة والمظهر والسلوك، وحتى عقيدته الكاثوليكية التي غالباً ما تختفي وتظهر على شكل تعاليم وفتايات. بدليل أنه يصنف ضمن حاملي راية النشاط التبشيري، ويحتفي به المذمومون في كتاباتهم وتدويناتهم. خرج هذا الفتى ذو الغرة الشقراء المميزة التي باتت تعرف باسمه، إلى العالم، في صحيفة "القرن العشرين" البلجيكية، بتاريخ 10 يناير 1929، ومنذ ذلك الحين بيعت ما يقارب 300 مليون نسخة من مغامرات تان تان في مختلف أنحاء العالم، وترجمت إلى جميع اللغات واللهجات، بما فيها العربية التي انفردت بها دار المعارف في القاهرة، لكن سوء الطباعة كان وراء سحب المؤسسة البلجيكية المخولة لترخيصها، حسب زعم إدارتها.

هيرجيه، مبتدع الشخصية، لم ينس أن يضيف بعداً إنسانياً لشخصيته كي تتوسع جغرافياً داخل القارة العجوز وتشمل آخرين مثل الكابتن الإنجليزي "هادوك" بمزاجه السيء، عشقه للخمور وجملته الشهيرة "الف لعنة ولعنة". هذا بالإضافة إلى المفتش التوام "دوبون" وما يمتلكه من سذاجة قاتلة، العالم الفيزيائي السويسري تورنيسول الذي يقوده ضعف سمعه إلى مواقف غريبة، والمغنية الإيطالية بيانكا كاستافور، والتي أفتت للحضور النسائي في السلسلة، وكي لا ينهم العمل بالكورية أو المسار البلجيكي الفرقتوني، ذي اللون الأحادي المشهد الأوروبي

أكملت تقريبا، في هذه السلسلة من الرسومات الموهلة في التفاصيل، وكان لزوماً على هيرجيه أن يضيف إليها العصر الحيواني، فكان

